يوميات تبحث عن عنوان

بقلم محمد عبد الله الشفيقي

انها تورق في مارس يا عطيل !
برشلونة .
أغسطس ١٩٦٢ .

برشلونه. الشارع الرئيسي الذي يمتد من الميناء الى قلب المدينة. الشارع الرئيسي الذي يفتتحه تمثال كريستوف كولمبس . ونحن في الصباح ، رائحة جميلة تنصاعد من هذه المدينة ، هذه الرائحة هي التي اجتذبتني ، حاولت ان افتش عن مصدرها ، لم اجد مصدرا محددا لها. ويبدو .... ويبدو ان المدينة كلها تتنفسها ، مررت في طريقي على محال الزهور المتراصة ... غير اني تركتها وابتعدت وما زالت الرائحة ـ او العطر ـ تطاردني . ربما كان نوعا مغينا من العطور تضعه الاسبانيات ، ولكني مررت في امكنة لم اصادف فيها الا الرجال فشممت نفس الرائحة ... ربما كان صابونا معطرا شائع الاستعمال !

ربما ... ربما ... ربما ... مهما يكن السبب فان هذه الرائحة تفرض وجودها في تلك المدينة الناعسة تحت شمس أغسطس . هي اقرب الى رائحة الينفسج ، واقرب الى اللافندر.

انا احب اللافندر . انا احب اللافندر.

برشلونه ، الشارع الرئيسي الذي يمتد من الميناء الى قلب المدينة. ونحن في الصباح ، ساعة الكنيسة الرمادية تدق كل ربع ساعة . في الدقات الوقار والثقة . الدقات تعرف جيدا انها مضبوطة ولذلك تعزف في وقار وثقة ، كياني كله مع ساعات اسبانيا ودقات ساعات اسبانيا لاني مازلت تحت تأثير المخدر الذي اعطانيه لوركا . لوركا رثى صديقه مصارع الثيران في قصيدة سماوية يتردد فيها ذكر الساعة ، يتردد في الحاح ، وكانه بندول ، في مرثية لوركا يتردد ذكر الساعة في ميعاد مضبوط ، يتردد في انتظام . أبيات جميلة تشم منها نفس الرائحة التي أشمها الان ، يتخللها دوما هذا السطر الذي يدق كالمطارق : « في الساعة الخامسة مساء ... » يتخللها في رتابة والحاح كدوي الطبل في أغنية حارة .

لان الخامسة مساء حددت مصير صديقه مصارع الثيران. لقى حتفه في الحلبة . همنجواي ايضا تحدث عن الموت في الحلبة ، أكان ذلك في كتابه Death in the afternoon ? مازلت اذكر دقات لوركا « في الساعة الخامسة مساء ... » . تتردد الدقات في ذاكرتي بنفس الالحاح الذي تتردد به في القصيدة ، ويبدو ان لوركا يقصد هذا التأثير. ما أروعه في لغته الاسبانية :

آ لاس ثينكو دى لا ناردى

ساعة برشلونة تدق كل ربع ساعة وانا اسير في الرامبلاس مخمورا من الرائحة المجهولة ، ومن دقات لوركا ، ومن احساسي باني في بلد غريب . واتفرج على المحال ، لكني لا أعي ما فيها تماما ، لاني واقع تحت تأثير انطباعات كلية لا تفاصيل . ومن حسن حظي اني صادفت في طريقي سوقا للخضر والفاكهة يشبه سوقنا في « باب اللوق » ..... لابد من دخول هذه السوق ـ انا افتش عن الشعب في أي بلد ، عن الماضي والبالي والطابع الخاص . عثوري ، في برشلونه ، على فندق مثل « هيلتون » لن يسرني . أريد ان أرى برشلونه على حقيقتها ... سوق الخضر والفاكهة في برشلونة مملوءة بالبائعات ، ربما كان كل باعته من النساء ، اما المشترون فمعظمهم من النساء بالطبع . هكذا احسست ـ في الداخل ـ باني غريب ، أحسست بذلك مرتين : اني قادم من بلد غريب ، واني في نفس الوقت ـ رجل ! ... أخذت أتمشى في الممرات الضيقة واتطلع الى الفاكهة والى بائعاتها ، والى الفراخ المذبوحة النظيفة ... والخوخ متورد الوجنتين بشكل صارخ ، والبرقوق يلمع من العز والنعمه . امام كل بائعة اوراق ثقيلة تزن فيها . أوه ... الغش في كل مكان ... الغش في كل مكان .

من احدى البائعات اشتريت عنبا وخوخا وسألتها عن بعض الاصناف الغريبة التي وجدتها عندها . سألتها عن أسمائها . كانت تجيب على كل سؤال بتسامح وترحيب . ثم سررت . مررت في طريقي بمحل اخر للفاكهة . بائعته كانت رائعة الجمال . اخذت انقل بصري بين البائعة والفاكهة . واضح انها لاحظت هذا . ولكنها كانت متكبرة هذه البائعة في سوق برشلونه . من يدري ! ربما يرجع صمتها وكبرياؤها الى عدم حبها لهذه الوظيفة ، واعتقادها ـ في قرارة نفسها ـ بانها كانت تليق بمستقبل افضل ... لولا ... لولا زوجها صاحب الحظ العاثر .... وبدافع من الرغبة ، الملحة ، في التحدث معها القيت تحية الصباح واشرت الى بعض الاصناف وسألتها عن اسمها فردت في كبرياء : الاسماء امامك على كل صنف وتستطيع ان تقرأ ! ... البائعة المتكبرة !!وابتسمت اداري وقع المفاجأة الباردة ، ومشيت .

اوه ... الى النور مرة اخرى ... النور بعد هذه الخيمة العامرة بالظل والطعام الطازج والوجوه الصبوحة ... وهذه ... المتكبرة ! ومن المؤكد ان كل مصري يرى هذه الوجوه الصبوحة سيقول في لوعة : « خسارة والله ! خسارة تتمرمط بهذا الشكل » . ولكن ، يبدو ان المسألة نسبية ، وأن هذه الوجوه الصبوحة في نظرنا عادية جدا . لان برشلونه. لان غرناطه . لان كل بلد في أسبانيا عامر بالجميلات . ان رجال اسبانيا، انفسهم ، يتمتعون بقدر كبير من الرقة والجمال .

فجأة ... في منتصف الشارع الرئيسي الذي يمتد من الميناء الى قلب المدينة أجد نفسي وسط مظاهرة من الزهور والورود . « مظاهرة» كلمة خفيفة جدا ، لاقل : مؤامرة ! أكشاك الورود على الجانبين ، وفي معظمها بائعات ايضا ، ولكنهن من العجائز الى حد كبير . هذه ثاني مرة في حياتي ارى فيها صفوف الورد على هذا النحو . المرة الاولى كانت عندما ذهبت الى مقبرة جدي صباح العيد ، هناك وجدت بائعات الزهور وسعف النخيل مصطفات عند مداخل المقابر .

تسكعت امام الاكشاك . تفرجت على الورود والزهور . معظمها لم أره من قبل رأى العين وانما شاهدته في الكتب ... ولم أشمه من قبل . توجهت الى احدى البائعات :

ـ بونيوس دياس سينيورا .

ـ بونيوس دياس سينيور . كي طال ؟

تسألني : كيف حالك ! واخذت تعرض علي اصناف الزهور وتتغزل في جمالها. وانا اتفرج واشم وادوخ واعرف في نفس الوقت اني لااستطيع الشراء . هل سأضعها في الباخرة ؟ الحياة في الباخرة ، بحديدها وقوارب نجاتها وحبالها ورائحة الطلاء الابيض ، كل ذلك يبعدك عن حديث الزهور والورود . حتى لو اخذتها فانها ستذبل في العنبر المكتظ بالانفاس ـ الخافت الضوء ـ ذى القمرات الموصده . هل سأمشي بها ، اذن ، في الشارع ؟

ـ وما هذه الاكياس ياسيدتي ؟

ـ انها مملوءة بالبذور . هي تنبت لك الزهور التي تراها في هذا الاصيص .
ـ غير معقول ! زهور الاصيص رائعة جدا !
ـ صدقني . انها من هذه البذور .
ـ ان في المسألة دعاية . انا لا أصدق .
ـ قلت لك ، ايها السيد، انها من هذه البذور .
وبدأت أقتنع ، وسألتها عن الثمن ، وأمسكت بكيس ، وبعد لحظة تردد اطرح هذا السؤال :
ـ ... ولكن ... ولكن هل ستنبت في مصر ؟
ـ انت من مصر ؟
ـ نعم .
ـ مرحى مرحى !
ـ . . . . . .
ـ أليس طقسكم دافئا وحارا ؟ هه ؟... اليس طقسكم دافئا وحارا مثل عندنا ؟
ـ صدقت والله ...
ـ اذن خذ هذه البذور على بركة الله . وستنبت ..
ـ أوه ... ولكن متى بالضبط ؟
والتقطت الكيس من يدي برقة وادارته ، ووضعت اصبعها عند التعليمات المكتوبة عليه ، وبابتسامة عريضة تقول :
ـ انها تورق في مارس يا عطيل .
ـ عطيل ؟ ماالذي جعلك تقولين هذا ؟
ـ أوه ... هذا الوجه .. هذه اللحية .
أمسكت انا بلحيتي التي أطلقتها منذ وضعت قدمي في الباخرة ، وتبادلنا الضحكات من الاعماق .
ـ أوه ... لكن مارس مازال بعيدا ياديدمونه . سعدت صباحا .
ـ سعدت صباحا ياعطيل . وسلم لي على مصر !

* * *

من يومها اصبحنا صديقين من بعيد لبعيد . كل يوم أمشي ـ بحكم الضرورة ـ في الشارع الرئيسي فأحييها :
ـ بونيوس دياس سينيورا .
ـ أوه ... بونيوس دياس عطيل .
صديقان من بعيد لبعيد . بالرغم من انني لم اشتر منها ، ولم اقتنع ببضاعتها ... هذا التسامح والبشاشة وجدتهما في كل من قابلته تحت شمس المدينة الناعسة برشلونه .

* * *

الحب على المقاعد ... وفي الحلبة الثور ينزف دما.

انك تجلس في حلبة مصارعة الثيران فاذا بكل المشاهد التي تتتابع امامك مشاهد وحشية تقطر دما . تعجبت بادىء الامر : ان الاسبان الذين تقابلهم في الطريق ، ونسألهم عن الطريق الى ميدان كاتالونيا ، والترام الذي يوصلنا الى كتدرائية الجبل ، والبوسته العمومية .... هؤلاء الاسبان يقطرون رقة وعذوبة . تجد هذا في كلامهم ولفتاتهم ، والطريقة التي يبتسمون بها ... بل تجد هذا في قسمات وجوههم ... وبخاصة النساء . هل ينطوي الامر على تناقض اذن ؟ لا اعتقد ان علماء النفس سيجدون تناقضا بين الرقة خارج الحلبة والوحشية التي يتلذذ بها الاسبان داخل الحلبة . انهم يفرغون كل ضراوتهم يوم الاحد او يوم الخميس ، ويتخففون من نزعات الانسان البدائية خلال تلك التجربة الدموية . ثم يخرجون من الحلبة وهم في منتهى الرقة . والعذوبة. واللطف !

انك تجلس في حلبة مصارعة الثيران فاذا بكل المشاهد التي تتتابع أمامك مشاهد وحشية تنزف منها الدماء . غير انك اذا تلفت حولك قليلا ... الى الجالسين والجالسات، لم تعدم لقطات انسانية رقيقة . ربما كنت انا الوحيد من بين هذه الالاف المؤلفة الذي انصرف عن الصراع قليلا وأخذ يتلفت حواليه . ربما كان الدافع الى ذلك رغبتي في الخروج من جحيم العذاب من حين لاخر ، وشغفي بالناس ، بالطريقة التي يتصرفون بها .

الذين يجلسون ورائي أجانب مثلي ، وان لم يكونوا مصريين. ويبدو انهم المان . لم أحاول الالتفات اليهم بطريقة مكشوفة ، وانما سمعت فقط موسيقى لغتهم . وكنت أستخرج الورق والقلم من حين لاخر لادون خواطري وملاحظاتي عن مصارعة الثيران . وأظل أكتب النقاط بالعربية، أكتب من اليمين الى اليسار ، وأفكر في الدهشة التي تعتري من يجلسون حولي . لحظتها ابتسم في سريرتي ، ابتسم في خبث واتلذذ بهذه الشقاوة . أحيانا كنت أتعمد ان اكتب كثيرا وبسرعة ، وانا اضحك في الداخل واتصنع الوقار في الخارج . استطعت بهذه الطريقة ان أجعل البعض ينزع عينيه عن المصارعة من حين لاخر ليطل على هذا المجنون الذي يرسم حروفا غريبة ويبدأ سطره من اليمين . بعد لحظات سمعت كلمة « آراب » من فم أحد الجالسين خلفي . الحمد لله . هناك اذن من يعلم بوجود لغة اسمها: العربية .

فتاة جميلة جدا (في رأيي) تجلس على يميني ، على يمينها هي يجلس فتاها . « خسارة فيه والله ! » أوه ... واضح أنني أقولهابدافع من الحسد ! العيون الاربعة مشدودةالى المشاهد التي تجريأمامها في الحلبة ، غير انها تتلاقى من حين لاخر في شوق . وتتشابك الايدي . ويدور بينهما كلام اسباني . لا افهم معظمه ـ لم أحذق الاسبانية بعد ـ ولكن اغلب الظن انه ليس مهما . قال لنا اهل العلم انه ليس ضروريا ان يدور بين المحبين كلام هام . ان أي كلام يدور بينهما لذيذ حتى ولو كان عن الخيار . يبدو من نغمة حديثها انها تحكي له عن يومها كيف قضته ، وعما قالته لامها وعما قاله أبوها ، وعن « الشغل » ومتاعبه . وكان هو ينصت اكثر مما يتكلم ، ويشاكسها بالكلام من حين لاخر، من باب « التقل» فتغضب هي وتشيح بوجهها عنه فيتودد اليها من جديد.
حامل الحراب المزركشة يتجه نحو الثور في زوبعة جهنمية .
وكان من الواضح انهما لم يدخلا بعد حظيرة الطبقة المتوسطة، وانهما يقفان عند احدى درجات السلم الذي تستخدمه الطبقة الدنيا في صعودها وهبوطها . ولكنهما كانا يرتديان أفخر ما يملكان ! هذا هو الحب ! وبدا واضحا انها لا ترتدي هذا الثوب كثيرا لانه أعز ما تملك من ثياب ، ولذلك تدخره للمناسبات . وهل هناك مناسبة أغلى من لقاء الحبيب والجلوس معه والعيون الاربعة تتلاقى من حين لاخر في شوق وتتشابك الايدي ويدور بينهما كلام أسباني !!!

الحراب تتشبث برقبة الثور في عذاب جنوني.
يبدو أنه تمادى في المشاكسة و « التقل » ، بل يبدو أيضا انه يقوم بدور الزعيم . بعض المقاعد تخلو في الصف الامامي فيقفز اليها

تطلب « الاداب »

وكتب « دار الاداب »

في الجزائر

من مكتبة النهضة الجزائرية

٣٧ نهج عمر القامة

فورا ويدعوها ان تلحق به . ولكنها تتمرد على المشاكسة وحب القيادة، وتظل في مكانها ، على يميني ، هذه الحلوة ! تظل وحدها . تتظاهر بالانصراف الى مشاهدة الصراع بين الثور والانسان .

يتلفت فتاها من حين لاخر .. في قلق .. في غيظ خفي .. يناديها أن تجيء الى هذا الصف . ان تجلس بجانبه . لكنها تهز كتفيها بدلع وترفض . وتتشاغل مرة اخرى بما امامها من صراع .. انها معجبة بالثوب الذي ترتديه . انها ما زالت تتأرجح على سلم الطبقة الدنيا ولذلك تعجب بهذا الثوب البسيط وتظل تتأمله . من حين لاخر تمد اصابعها امامها وتتفرج ـ بشغف ـ على الخاتم الذي يلتف حول اصبعها الطويل الناعم . بين الفينة والفينة تدير اسورتها حول معصمها ، تديرها في اعتزاز وغبطة .. اما فتاها فقد خرج لتوه من صالون الحلاق الذي جز شعر قفاه في خط مستقيم . وهو متورد الوجنتين من كثرة ما استعمل الموسى هذه الظهيرة ، قبل خروجه للقاء الحبيبة الحلوة. من وسط الباقة يتدلى رباط عنق صاخب الالوان ، حتى لتسمع لالوانه جلبة وصياحا .

طفح الكيل . ويبدو ان هذه الفتاة ستفسد الجلسة وتبعثر في الهواء هذا المبلغ الذي ادخره ليدفع منه ثمن تذكرتين في الشمس . يفشل الاسلوب القيادي ، الآمر المشاكس . ويصمت صاحبنا لفترة. وأثناء صمته يكون الماتادور قد انتهى من قتل الثور . تعقب عملية القتل فتره استراحة تتعالى فيها نداءات الباعة ، ينادون على الترمس واللب والسوداني والكوكاكولا .. تتاح له فرصة أكبر ليعاتبها أثناء هذه « الفسحة » . تعطف عليه في النهاية وتترك مقعدها وتجلس بجانبه. ومرة اخرى ينصت هو أكثر مما يتكلم ، ويشاكسها بالكلام من حين لاخر ، من باب التقل . ومرة اخرى تغضب هي وتشيح بوجهها ، لكنه يتودد اليها من جديد ـ ربما للمرة المائة .

أنصرف عنهما !

أتركهما لسعادتهما ! أتركهما يحتسيان زجاجتي كوكاكولا.

* * *

هل أصف موكب النصر .. حين يسير الماتادور أمام الجماهير يرد على تحيتها ؟

سأصف الطرائف التي تصاحب هذا الموكب . اننا نريد هنا ان نعرض للجانب المضيء فقط . كفى حديثا عن الجانب المظلم (*).

كانت أول مرة أرى فيها القبعات وأغطية الرأس تتساقط بالفعل حول البطل . هذا المنظر كنت لا أشهده الا في الصور الفوتوغرافية أو في السينما . وعندما شهدت أول قبعة تسقط عند قدمي الماتادور صحت بيني وبين نفسي : لا شك أن صاحب هذه القبعة أحد شخصين: اما متحمس دفعه الحماس الى تصرف جنوني ، او انسان ضاق بقبعته وفكر جديا في شراء قبعة جديدة ، فآثر ان يتخلص من القديمة بطريقة بطولية !!.. سرعان ما اتضح انمسألة قذف القبعات ليس فيها بطولة ولا يحزنون . بل وليست من عمل المتحمسين المجانين ... لسبب بسيط جدا : ان رامي القبعة (معذرة لرامي الجله !) يعرف جيدا ان القبعة ستعود اليه . متى ؟ بعد انصراف الجماهير ؟ لا .. انها ستعود اليه في التو واللحظة . ما ان يقذف بها وتقع على الارض حتى يهرع اليها مساعدو الماتادور « السائرون وراءه » ويقذفونها اليه . وتعود الامور الى مجراها .. الى هنا والخبر شبه عادي . غير ان الامر لا يقف عند حد القبعات والبيريهات . فجأة وقعت تحت قدمي الماتادور زمزمية يبدو من حركتها في الهواء انها ثقيلة !!! هل سينجو الماتادور من الثور ليلقى حتفه على يد زمزمية ؟

الحمد لله .. سليمة .. ويتعالى هتاف الجماهير لان الماتادور توقف عن السير ، وانحنى على الزمزمية والتقطها في رشاقة المصارع الاسباني والراقص الاسباني . ووقف الماتادور بطريقة مسرحية، ورفع غطاء الزمزمية ، وشرع يشرب منها . جن جنون الجماهير . كادت عيونها تغرورق بالدموع من التأثر ... من المؤكد ان صاحب الزمزمية سيضعها في البيت ، في مكان امين . وسيعرضها امام كل زواره ويقول لهم ان الماتادور « الفلاني » شرب منها .

* * *

لا يخلو أي مكان للفرجة من المزوغين الذين يستمتعون بما نستمتع به دون ان يدفعوا مليما واحدا . العقبة الوحيدة التي تصادف هؤلاء انهم لا يستطيعون ان يستمتعوا بالفرجة من أولها . عليهم ان يتشبثوا بحبال الصبر وينتظروا ربما لساعة ، وبعد ذلك ، وفي غمرة الانشغال والفوضى والازدحام ، وانصراف بعض الحراس عن اماكن الحراسة من اجل التوجه الى اماكن الفرجة. أثناء هذا كله يدخل اصحابنا ويهلون علينا وفي عيونهم نشوة الانتصار . ولا يكتفون بمتعة الوصول الى مكان الفرجة ، وانما يفتشون عن مقاعد خالية ايضا .

فوجئت بواحد من هؤلاء يجلس على يميني في المقعد الذي تركته الحسناء المدللة . تذكرت حفلات ام كلثوم ، واولاد البلد الذين يظهرون في الوصلة الثانية ويجلسون في اخر صف . كان رجلا عجوزا طيبا ممتلئا حيوية . وكان منصرفا الى العرض الدامي بكل حواسه . لقد حصل على مقعد ولكني أبالغ حين اقول انه جلس عليه . لقد كان يقف في معظم الاحيان من فرط الحماس ، ويظل يصفق ويلوح بيديه، ويصيح. خيل الي ساعتها انني في ملعب كرة القدم . اتضح من صياحه ان لكل حركة من حركات الماتادور وغيره من المصارعين اسما . تماما كما نقول« « ونج لفت » ، « جون » ، « سنتر هاف » .. الخ .. أحيانا كان الحماس يبلغ به ذروته فيشير على الماتادور بحركة معينة: أوه .. اقترب من اليمين فهذا افضل ، حاول ان تبعد الوشاح من هذه الناحية لا تلك .. الخ ..

كان الماتادور يسمعه .. ويسمع كلامه !!

بعد نصف ساعة كان الصبي الحلو الملامح ، الذي يبيع الترمس، يجلس بجانب هذا الرجل العجوز . كان صياحهما يرتفع على كل صياح. تأكدت لحظتها ان الذي لا يدفع شيئا يستمتع اكثر ، وان الذي دفع يظل يسأل نفسه بين لحظة واخرى : هذا المشهد الذي دفعت فيه «الشيء الفلاني » هل يستحق اعجابي ؟

ليتني تفرجت على مصارعة الثيران مجانا .

ليتني !

لكن هذه الفرجة كلفتني ثمن تذكرتين ! دخلت باحداهما من البوابة الكبيرة ، والثانية في جيبي لم تمس .

لان صاحبتها اخلت بالوعد ولم تحضر . أوه .. انها حكاية أخرى. لكني قد اذهب الى برشلونة مرة اخرى ، ربما في عام قادم . من يدري؟ سأذهب الى حيث تعمل ـ في شارع الرامبلاس ـ وأعاتبها .

القاهرة — **محمد عبد الله الشفقي**

(*) اداب فبراير ١٩٦٣.